القلق في «أبيات ريفية»

بقلم مصطفى خضر

يتداح السام ، بما يشتمل عليه من احساس بالغربة والكآبة واللااستقرار واللامبالاة ، خالقا اللانهائي واللامحدود عوالم بكر بلا وجه بلا زمان تنبثق حرة من ركام الوجود الموضوعي ، فتعطي الذات اللانهائية بمداها المبدع . ولكن غبطة الانطلاق ونشوة التجدد في « ابيات ريفية » لانها تمتزج ابدا بالانحدار والاحتضار واللاجدوى افتادتاها من اعصابها مع كل انسراب ظل او ضوء ، وفيض عتمة ، او انبعاث حيوية . فما العالم ؟ ما الانسان في كونيته القتيلة حتى في نبضها الحي ؟ يتحد هذا كله في نغم حاد ولاهث في « قصيدة المقهى » ، ويبرعم الحس بتفاهة العالم :

ضوضاء تفرق ، في ضوضاء
وتغط بغفوتها الاشياء
كسل يتمطى ، من سأم
وفراغ يتخطى الاضواء
ونصال ترقص جائعة
والعالم مصلوب : اشلاء
ولفافة تبغ تحترق .

ويتسم السام فيها ، كاكثر قصائد « ابيات ريفية » بسمة انسانية تعمق اليأس ، ترفض العزاء ، ولا تحاول كشف الغد بما قد يكون فيه من عطاء وحيوية ؛ فلعنة الواقع الذي لا يكترث بمن يحياه وبما تنطوي عليه ذات من يحياه تلاحق الانسان . وبذلك تصنع المباشرة في الاتصال بالعالم ، بالكون ، بالارض . انه يحس اليقظة ، ولكنها يقظة الانسحاق والشعور باللاشيئية ، تابى الخلاص من مباشرة الاتصال بالوجود مرة اخرى .

ففي قصيدة « الجوع والرماد » يتالق السام وقد انبثق من القلق امام البدء من جديد ، ودفن التاريخ والتجربة في تجربة اخرى مع العالم .

الى اين ، وهذا المأتم الابدي يطوينا ؟
وندفن ، في ركام العالم المجنون ، ماضينا
هدمنا بيدينا الله ، وانطفات مآقينا
افقنا في عراء الموت ابعاد تنادينا
وصوت من اقاصي الروح يهتف مبهما فينا
عرفنا ما وراء الله ، ما خلف امانينا
عصرنا الحلم وانفرطت على الريح اغانينا
وعدنا جثة ، لا دفء لا مجهول يغرينا ...

ومن هذه التجربة الحادة ، حيث ينحدر الانسان مهزوما ، بلا دفء بلا عطاء لا مجهول يغريه ولا بريق ، تتالق تلك النغمة اللامبالية المقربة بكل ما تنطوي عليه من احساس بالانهيار ، في قصيدة « تثاؤب » حيث تتعانق الصور الشعرية لتفضي بنا الى ما خلف التجربة الانسانية فيها :

سدى ، يا اندفاع الحياة الغبي
تمد حنيني بشلال نار
وتحملني للعميق القصي
وتقذفني قلقا وانتظار
سدى يا تدفع موج الزمان
تثير على حنجرتي عنفوان
صداك القوي
بابوابي الخرس كل السام

ولعل الانفصال بين حيوات الواقع والحلم تحدد هذا الوعي الى واقع الانسان ـ الانسان العربي خاصة . فكيف يتمكن من اكتشاف ذاته ، وبالتالي من اكتشاف مسئوليته ، في بؤر الضياع والتفاهة والزيف ؟

هكذا ينبثق القلق . والانسان العربي المعاصر بما في اغواره من تمرد وثورة وفعالية ، يواجه واقعه العنيف من اجل عالم الحرية والبراءة والمحبة ، ويهدر مع البشر الطوفان وزاده اللهيب ، ويشق ابعاده وقد آمن بانتصار قضيته لعدالتها ، ولانه يؤمن بانه عندما ينتصر فانما ينتصر لبقائه ولبقاء الاخرين ايضا ، ولانه يعي حميميته ، ومحاولة وصوله لطبيعة العالم الحقيقية لامتزاج طينته بعناصرها :

انا من مواكب تقرع ابواب هذا الوجود
مهرولة من سفوح السماء تلف الحدود
انا .. فرح الارض ، انسانها ، شوقها السرمدي
انا في تدافع عشب ، وفي خفق صبح ندي
انا قد غمست حروفي ، بكل عروق الحياه
وبين ضلوعي لهيب اله ، وسر اله ..(١)

ولذلك فانه يتالم للانسان ، لذاته ، ويفجر ثورته من اجل العالم الارحب الارحب . ولذلك يضحي ، ولكن اتعطي التضحية غير محاولة الاستمرار في طريقها من اجل نحت اغنية على رخام التاريخ ؟

من خلف قضباني الحديدية
يا اخوتي كتبت اغنيه .. (٢)

ويتفجر الحقد في هذه الابيات من قصيدة « امراة في بور سعيد » من اجل القضية ، قضية الحرية والعدالة ، من اجل الطفل .. من اجل الارض ..

انا في الظلام احب احقادي والختال الدروبا
انا الطم الاقدار ، ارتشف المنون دما وطيبا
قد ادق بقبضي ابوابه .. حتى يجيبا

وهذا تموز في العراق يبعث من برك الدم الها ، ويبعث العراق معه ببرادنه ومجده ، واغنياته . ويلتقي الشعب والرفاق ، وتتعانق في وجوه الحرية والميلاد :

مدينتنا بين احضان دجلة
مناغاة طفل ، لغة طفله
وام تغني التحرر كله
يعود الرفاق
لمجد العراق
ولم يبق تموز عبدا مؤله . (٣)

وهكذا يستمر التوتر في قصائد « ابيات ريفية » بين ارادة الخلاص وبين الواقع ، فاضحا بالامل مبشرا ، رغم التعاسة والقلق ، يصبح لا فاجعة فيه ولا رصاص ولا دم .. ويتالق في شكل عميق ، وصور متازرة نامية في قصيدة « صبح » من قصائد « رسائل من جميلة » . وفي هذا الصبح يبحث الفرد عن صبحه فهل يلقاه ؟

(١) الزائر الغريب ص ١٢٣ (٢) اغنية ص ٧
(٣) لقاء اب ص ١٠٣

... وترامت جدائل الله شقراء ، واهوى من ريشة الله ظل
واطلت من فجوة الشرق ، اسرابشعاع، وغاص للشمسنصل
وعلى هجمة السفوح ، تلوى نهر ضوء ، وبكر الزهر غل
وبعيدا ، تفر من زبد الفجر سواق ، وجدول يتدفق
فيشق المحراث دربا من الخير ، ويخضل زنبق فوق زنبق
عالم ابيض تولد في الارض ، وقلب ، في يقظة الحس ، طفل
يا ابن بللا اتشرق الشمس في الدنيا ، ويلقف بالفراشاتحقل
وانا .. انت ، جمت زنزانة قفر ، وباب على افاعيه ، مغلق
حبة القمح كيف نطعمها الغربان نسغا ، وقطرة ميمونة ؟
كيف نستل من محاجرنا ، اللون عطاء ، ونملأ الارض زينه ؟
وانا .. انت يا ابن بللا سجين بارد القيد ، واحتضار سجينه

وعندما ينتصر الانسان العربي على واقعه في القصيدة الرائعة « مدينة الغرب » يخلق من اغواره واقعا اخر ، يبقى باحثا عن واقع ذاته الاخر ، لان انتصاره على واقعه الموضوعي ان جاز هذا التعبير – لايعني انتصارا اخر على واقعه الذاتي ، واقع التمزق والقلق .

وتقرع الاجراس للحرية
تعانقت مبادىء على اللهب
المارد الاسمر غنى وانتصب ..

ولكن صانعي هذا الواقع يخلدون لاستمرارية الضياع والتمزق :

يثرثر الرجال في المقاهي
ويمضغون لعنة الاله
ضحكاتهم جوف وصمتهم صخب
قد عصروا عروقهم ، مع العنب
وافرغوا ايامهم ، بلا سبب .. الخ .

فقلق الانسان من اجل قضاياه : الحرية ، والعدالة ، الخبز .. ، ليس الا جسرا اخر تعلق اخر وهو محاولة اكتشاف ذاته ، ومحاولته الاستقرار ، والاحساس بالمسؤولية في عالمه . ولذا تلونترؤيا الشاعر بالقلق والهلع في هذا العالم العميق المبدد ، العتيق المهاوي القديم العراء ، قصيدته الرائعة الجميلة « سبوتنيك » عندما تغدو الحضارة ضوضاء في ضوضاء ، او عندما تغدو تعاسة وعارا عليه ، على انسانها :

ويتلفت العالم المثقل
والف وجوم به يسأل
وينقض ليل الظنون عليه
ويحتقن الرعب في مقلتيه ..
حضارة ضوضاء حالمة بالفضاء البعيد
تفح وتلفظ انسانها قطعة من جليد .

وهو يرفض ان يعامل كشيء او تفرد قابل للاستبدال لانه انسان.. اجل لانه انسان ، ويريد ان يحيا ، ولانه يحب ارضه ، ويبارك انسانها الحقيقي الكادح من اجل بقاء العالم ، الذي لا يريد له ان يكون مجرد رقم ، مجرد آلة ، او صدى انتصب يركض في العالم يطارده الرعب .

زفاغو صدى يائس لا ينام
تطارده لعنات الظلام

وهكذا يغدو عارا على الانسانية ان يغدو انسانها مجرد جثث تتارجح في الريح او مجرد عري ضائع بلا هدف ، كما يصوره شاعرنا الصوفي في رائعتيه « رعاة البقر » ، « الطبول » ..

وهذا ما يعطى حيوات انساننا العربي الذاتية حدوده ، فعندما نحاول ان نعانق بالتضحية بعضنا بعضا ، فهل يكون لنا الوصول الى العالم الذاتي الذي ينسجم مع العالم الخارجي ، ومع الاخرين ؟ وهذا يرجع الى تاريخنا اليومي الذي نحياه حيث التفاهة واللاستقراب و ..

ففي قصيدة « احزان قديمة » الرائعة الجمال نستطع ان نقرا :

السوط والصليب والمرآة يا صديقتي تاريخنا السقيم
وحولنا في الارض تشمخ الذرى ويوقد النسيم
فهل من طريق للخلاص ؟ لاكتشاف او خلق واقع اخر
في العالم المصلوب المحتضر ، بلا تضحية قد لا تثمر ، وبلا
استبدال الذات الصميمية فينا بذات مزيفة .
ان الخلاص لن يكون في الاهل او الحلم او الرحيل فهذه طرق
للهرب من التاريخ اليومي ، وكذلك الحزن والكآبة ..
قد ينهض الربيع ، قد يفيق
وتركض اللحظات في حبورها الدفين

ان هذا مجرد احتمال قد لا يكون . وعندما يكتشف الشاعر ماهية الحزن يجد انه ليس الا هروبا لا معنى له :

تمر امام شموعي ، ودع شعرك المستعار
وعد عالما اجوف الروح ، واخلع مسوح الوقار
فلست دماء النشيد ، ولست طعام الوتر
وما انت في ريشة المبدعين ، حياة الصور .. (1)

كما انه يرفض الحلم ايضا ، ففي مطلع قصيدته الرائعة « خلف الزجاج» يقول :

يكفي .. اريد الارض سيدتي
ما بعد هذي الرحلة الوسنى ؟

اما الرحيل .. الرحيل الحقيقي ؟ فقد يكون بحثا عن واقع اخر ، ولكنه ينطوي على طبيعة الهروب ، وهذا ما حققه شاعرنا الصوفي ، وللرحيل في شعرنا المعاصر سمفونية رائعة متعبة انبعثت لحونها من اعماق الانسان العربي ، ولكن الرحيل لم يجد ، فقد كان محض بحث. وهذا ما نجتليه في القصيدة الجميلة « مكادي »

على اي ارض يغني مع الفجر انسانها ؟
باي الشواطىء تكتظ في الشمس الوانها ؟
توسدت عرش البحار
باي حمار
مكادي ! باي قرار ؟

من هنا كان الشعور القبلي عند شاعرنا الصوفي بالرجعة الى الظل ، الى زاوية الصمت والترقب اللامبالي لشمس قد تشرق عليه بعد الرحيل الاخير (2) وقد تحسس عقم الطموح البشرى ، من خلال طموحه الى عالم افضل واجمل ، عقما يدعو الى الكآبة والصمت .. ذلك الطموح الذي لا يستقر ولا يرضى لانه انفصالي دائب ينشد باستمرار ما يعوزه ، فبدا له العالم وكانه ظل ارادة خرساء بلا هدف لا ينتج عن مسكنها المؤنس سوى القلق والالم والاسف .

وقصائد « ابيات ريفيه » – رغم انها لا تحوي الا بعض شعر الصوفي – تتسم بالجدية والاصالة لانها تمتح من ينابيع تجارب الشاعر الانسانية في عالم يحياه ، وتتحققه في كلمة مسؤولة متالقة خصائصها الفنية متعانقة ، وبذلك تنمو خلالها التجربة الانسانية فيبرز المضمون الشعري في اطار خصب مليء سواء لجا الشاعر في ذلك الى طواعية التفعيلة الواحدة ، او البيتية الكاملة .

وقصائد « ابيات ريفية » تزخر بالوعي للواقع باكتشاف الشاعر له وبالاشارة اليه ومن هنا فهي تفضي بنا الى الحقيقة ، افضاءها بنا الى الجمال .

حمص : **مصطفى خضر**

---

(1) الزائر الغريب ص ١٢٣ .
(2) قصيدة « نهاية » ، وقد كتبها الشاعر منذ ستة اعوام تقريبا .. ويستطع ان تقرأ فيها هذين البيتين :

صديقتي طويت احلامي وسرت لاظل لايامي
فلملمي الاوتار خلفي فقد يشرق بعدي فجر انغامي